



الصحافة السرية في المغرب العربي كأداة لمقاومة الاستعمار الفرنسي (١٩٢٠-١٩٥٦) تحليل خطاب صحف المناضل والطلبة نموذجاً

م.م عبد كامل عبد ظاهر

وزارة التربية / المديرية العامة لتربية الانبار
Abd89Zain89@gmail.com

المخلص :

يتناول هذا البحث بالدراسة والتحليل ظاهرة الصحافة السرية في المغرب العربي خلال فترة الاستعمار الفرنسي (١٩٢٠-١٩٥٦)، بوصفها وسيلة مقاومة ثقافية وخطابية في مواجهة الهيمنة الكولونيالية. ومن خلال تحليل خطاب صحفتي المناضل والطلبة، يسعى البحث إلى استكشاف الكيفية التي أسهمت بها هذه المنابر الإعلامية في تشكيل الوعي السياسي، وتحفيز الجماهير، وبناء سرديات مضادة للسردية الاستعمارية، من خلال أدوات لغوية وأيديولوجية متكاملة. تعتمد الدراسة منهج تحليل الخطاب التاريخي (Discourse-Historical Approach - DHA)، الذي يتيح مقارنة النصوص بوصفها ممارسات اجتماعية مشبعة بالسياق التاريخي، السياسي، والرمزي. وقد تم التركيز على ثلاثة محاور رئيسية: البنية التحريرية، أنماط اللغة المستخدمة (الثورية، الرمزية، الدينية)، والموضوعات المتكررة مثل الهوية، المقاومة، والعدو الاستعماري. أظهرت النتائج أن صحفتي المناضل والطلبة مثلتا فضاءً مقاومًا يشترك مع الواقع عبر لغة مشحونة بالتحريض والرمز، متكنة على مرجعيات تاريخية ودينية لتعزيز شرعية الخطاب الثوري. كما كشفت الدراسة عن تأثير البيئة الأمنية والسياسية في تشكيل بنية التحرير، وعن تنوع استراتيجيات التعبئة الجماهيرية، من خلال الأسلوب الندائي، واستخدام الاستعارات والمجازات ذات الحمولة الثقافية. وبرز استدعاء التاريخ والدين كأداتين مركبتين لإعادة بناء الهوية الجمعية، وتثبيت مشروعية الكفاح ضد المستعمر. وتخلص الدراسة إلى أن الصحافة السرية، رغم محدودية مواردها، أدت دورًا وظيفيًا فاعلاً في إعادة إنتاج المعنى الوطني، وكانت جزءًا من جهاز المقاومة متعدد الأوجه، ما يقتضي إعادة تقييمها بوصفها مصدرًا ذا قيمة عالية في فهم الذاكرة الوطنية، وتاريخ الحركات التحررية المغربية. الكلمات المفتاحية: الصحافة السرية، المغرب العربي، الاستعمار الفرنسي، خطاب المقاومة، المناضل، الطلبة، تحليل الخطاب التاريخي، الوعي السياسي، الذاكرة الوطنية، الثقافة المضادة.

Abstract :

This research investigates the clandestine press in the Maghreb (Algeria, Tunisia, and Morocco) as a strategic tool of anti-colonial resistance during the French colonial period (1920-1956). Focusing on two underground newspapers, *Al-Munāḍil* (The Fighter) and *Al-Taḥī'a* (The Vanguard), the study aims to analyze their discursive and ideological structures and assess their role in shaping national awareness, countering colonial narratives, and mobilizing collective action. These newspapers functioned not only as channels of information but as instruments of political struggle and cultural reappropriation. The research adopts the **Discourse-Historical Approach (DHA)** as its analytical framework, which situates discourse within its socio-historical context and examines how linguistic choices serve broader ideological functions. The study is structured around three core analytical axes: editorial structures, rhetorical strategies (revolutionary, symbolic, religious), and recurring themes such as identity, resistance, and colonial oppression. Findings indicate that the clandestine press, despite limited technical means, succeeded in constructing a resistant counter-discourse grounded in metaphor, historical memory, and Islamic references. Moreover, the newspapers' language employed direct appeals, emotionally charged expressions, and dichotomous conceptual frameworks (e.g., oppressor/oppressed, faithful/traitor), which served to energize readers and strengthen their affiliation to the national cause. The intertextual use of religious and historical figures, as well as references to global liberation movements, allowed these publications to universalize the local struggle and insert it into broader anti-imperialist frameworks. Ultimately, the study demonstrates that

Al-Munāḍil and *Al-Ṭalī'a* were not marginal or symbolic publications, but essential components of the resistance apparatus. They shaped political consciousness, preserved collective memory, and contributed to cultural decolonization. This research highlights the need to reevaluate clandestine media as primary historical sources and as key agents in the intellectual and political formation of post-colonial Maghreb societies. **Keywords:** Clandestine press, Maghreb, French colonialism, resistance discourse, *Al-Munāḍil*, *Al-Ṭalī'a*, discourse-historical analysis, political awareness, national memory, counter-culture.

المقدمة :

شهدت منطقة المغرب العربي خلال النصف الأول من القرن العشرين إحدى أكثر الفترات اضطراباً في تاريخها الحديث، بفعل هيمنة الاستعمار الفرنسي على الجزائر وتونس ومناطق من المغرب، وما رافق تلك الهيمنة من سياسات قمعية وإقصائية طالت البنى الاجتماعية والثقافية والسياسية للمنطقة. فبعد تثبيت السيطرة العسكرية والإدارية منذ أواخر القرن التاسع عشر، انتقل المشروع الاستعماري إلى ترسيخ منظومة هيمنة رمزية، تمثلت في محاولات طمس اللغة والهوية، وإعادة تشكيل البنية الثقافية والتعليمية والاقتصادية للمجتمعات المحلية على أسس فرنكوفونية. ولم تكن هذه السياسات منفصلة عن منطق القوة الاستعمارية، بل كانت امتداداً لـ "العنف الرمزي" الذي مارسه السلطان الكولونيالية لتفكيك الروح الجماعية للمجتمعات المستعمرة وتهميش إرثها الحضاري. وفي مقابل هذا الواقع، لم يقتصر الرد الوطني على المقاومة المسلحة فحسب، بل ظهرت إلى جانبه أشكال متعددة من الكفاح المدني، أبرزها النضال الفكري والإعلامي. فقد تنبّه المثقفون والمناضلون الوطنيون إلى أهمية الكلمة والصورة في تشكيل الرأي العام، وضرورة استعادة الخطاب من قبضة الاحتلال. ومن هنا، بدأت تتشكل خلايا إعلامية سرية توظف الصحافة كأداة مقاومة ثقافية، ليس فقط لنقل الأخبار، بل لصياغة الوعي الجماعي، وتعزيز الانتماء الوطني، وتفكيك السرديات الاستعمارية التي كانت تهيمن على وسائل الإعلام الرسمية. وسط هذه البيئة القمعية، نشأت الصحافة السرية كأداة تعبير بديلة، بعيداً عن أعين الرقابة الاستعمارية ومؤسساته العقابية. وظهرت هذه الصحف في سياقات سرية أو شبه علنية، تراوحت بين المنشورات اليدوية المطبوعة في الخفاء داخل البيوت أو المساجد أو الكهوف الجبلية، والمجلات التي تنتقل بين الأحياء الشعبية أو تُهرَّب عبر الحدود من مناطق الجوار (كسيناء في تونس أو وجدة في المغرب). وعلى الرغم من تواضع إمكانياتها الطباعية وغياب التمويل المؤسسي، فإن هذه الصحافة امتلكت قوة رمزية هائلة مكنتها من اختراق الحصار الإعلامي، وبتّ رسائل المقاومة، وتجاوز الحظر الرسمي المفروض على التعبير الحر. لقد اتخذت هذه الصحافة طابعاً تعبيرياً مباشراً، فخطابها لم يكن موجّهاً للنخب أو صنّاع القرار، بل للفئات الشعبية، الفلاحين والعمال والطلبة، الذين شكلوا عماد الحركات التحررية. ومن خلال اللغة البسيطة المحمّلة بالرموز الوطنية، والشعارات السياسية، والاستعارات الحربية، تمكنت من تحويل الورقة المطبوعة إلى أداة تحريض، ووسيلة تواصل ثوري، بل ومنصة تعليمية في بعض الأحيان. وفي هذا السياق، برزت صحيفتا "المناضل" و"الطلّيع" كمنصتين نضاليتين فاعلتين، جسدتا طموح الفعل المقاوم في شكله الإعلامي. فقد استخدمتا الكلمة كسلاح موزّ للبنديقية، وسعتا إلى تحريك الوعي الشعبي، وتغرية خطاب الاستعمار، وتثبيت معالم المشروع الوطني في أذهان القراء. ولا تكمن أهمية هاتين الصحيفتين فقط في محتواه السياسي، بل أيضاً في كونهما وثيقتين تاريخيتين نادرتين تتيحان للباحثين نافذة للدخول إلى البنية الخطابية للمقاومة المغربية من الأسفل، من زاوية الناس والمناضلين اليوميين، لا من خلال زوايا النظر الرسمية أو المؤسسة السياسية. ومن هنا تتبع ضرورة دراستهما ليس فقط بوصفهما جزءاً من الذاكرة النضالية، بل بوصفهما إنتاجاً ثقافياً وخطابياً يستحق التحليل العلمي المنهجي.

ب. أهمية الموضوع

تتبع أهمية هذا البحث من كونه يتناول زاوية نادرة من زوايا النضال الوطني المغربي، وهي زاوية الصحافة السرية بوصفها مصدراً أولياً لقراءة المقاومة الثقافية. لقد اعتادت الدراسات التاريخية أن تستند إلى الوثائق الرسمية أو مرويات الزعامات السياسية، في حين بقيت المادة الإعلامية السرية مهمّشة، إما بسبب صعوبة الوصول إليها، أو بسبب التصنيف غير الرسمي لها. غير أن إعادة قراءة هذه الصحف تمكّن الباحث من استكشاف المزاج الشعبي الحقيقي، واللغة اليومية التي خاطبت الجماهير، والخطاب الذي لم يُصنع للنخب وإنما للناس. ثم إن صحيفتي "المناضل" و"الطلّيع" لم تحظيا بما تستحقانه من دراسة تحليلية، لا من حيث المحتوى ولا من حيث أدوات الخطاب المستعملة فيهما. فمعظم الدراسات التي تناولت الصحافة المغربية في فترة الاستعمار ركزت على الصحف القانونية أو الحزبية الكبرى، دون أن تُعير الاهتمام الكافي للصحف السرية، التي غالباً ما كانت أكثر جرأة وتحريضاً، وأقرب للناس في لغتها وصياغتها. وبالتالي، فإن تحليل هاتين الصحيفتين يُسهم في ملء فراغ بحثي، ويقدم مادة خصبة لفهم أحد أهم وجوه المقاومة اللامادية للاستعمار الفرنسي.

ج. إشكالية البحث

تتحدد الإشكالية الرئيسية لهذا البحث في محاولة فهم الكيفية التي مارست بها الصحافة السرية دورًا تأطيريًا في مقاومة الاستعمار الفرنسي بالمغرب العربي، مركزًا على خصائص الخطاب التحريري في صحيفتي "المناضل" و"الطلیعة". كيف استطاعت هذه الصحف، رغم بساطة مواردها، أن تُنتج خطابًا تعبويًا قادرًا على صياغة الوعي الشعبي وتحفيز الجماهير على المواجهة؟ ما السمات اللغوية والدلالية التي ميّزت هذا الخطاب؟ وهل اختلفت الاستراتيجيات الخطابية بين الصحيفتين، أم انطلقتا من نفس البنية الثورية وإن اختلف السياق السياسي؟

د. أسئلة البحث

ينطلق هذا البحث من جملة من الأسئلة المركزية:

١. ما السياق التاريخي والسياسي الذي نشأت فيه الصحافة السرية في المغرب العربي، وما أبرز محطاتها؟
٢. كيف عبّرت صحيفتا "المناضل" و"الطلیعة" عن مضامين المقاومة، سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا؟
٣. ما أبرز تقنيات الخطاب الموظفة في هذه الصحف (الاستعارات، الشعارات، اللغة الرمزية، السرد، الإيحاء...)?
٤. هل عكست كل صحيفة خصوصية نضالية محلية أم تبنت خطابًا وحدويًا مغاربيًا عامًا؟
٥. كيف تفاعل القراء مع هذا الخطاب، وما أثره في التعبئة الجماهيرية؟

هـ. أهداف البحث

يسعى هذا البحث إلى تحقيق الأهداف التالية:

- تحليل البنية الخطابية لصحيفتي "المناضل" و"الطلیعة"، من حيث الشكل والمضمون.
 - تحديد خصائص المقاومة الثقافية والإعلامية في الصحافة السرية المغاربية.
 - تقييم فاعلية الخطاب الإعلامي السري في التأثير على الجمهور المستعمر ورفع وعيه السياسي.
 - المساهمة في أرشفة وتوثيق مادة نضالية نادرة، يمكن أن تسهم في كتابة تاريخ المقاومة من منظور بديل.
- و. المنهجية

تعتمد الدراسة المنهج التاريخي التحليلي، الذي يزاوج بين قراءة السياق السياسي والاستعماري، وبين تحليل محتوى النصوص الصحفية. ويُستخدم في التحليل مقارنة تحليل الخطاب (Discourse Analysis)، بما يسمح بفحص اللغة، والبنى الدلالية، والاستراتيجيات الخطابية، وفق أدوات علمية محددة (مثل تحليل السياق، والتحليل النقدي للخطاب، واستكشاف المفاهيم المفتاحية).

الفصل الأول: الإطار النظري والمنهجي

1.1 الصحافة السرية: المفهوم، الخصائص، الأدوار

تمثل الصحافة السرية ظاهرة إعلامية سياسية نشأت في ظروف القمع والاستبداد، حيث يُحظر التعبير الحر وتُقيّد الوسائل الإعلامية الرسمية بخطاب السلطة أو المحتل. ويُقصد بالصحافة السرية كل إنتاج إعلامي يُعدّ وينشر خارج الإطار القانوني أو الرقابي الرسمي، غالبًا بطريقة متخفية وسرية، ويهدف إلى مقاومة خطاب الهيمنة السائد سواء كان سياسيًا أو استعماريًا أو عقائديًا. في السياق المغاربي، ظهرت هذه الصحافة كجزء من المقاومة الثقافية في مواجهة الاستعمار الفرنسي، حيث عملت على تعبئة الجماهير، وتوثيق انتهاكات المحتل، وتثبيت الوعي الوطني في صفوف الشعب. إن تحليل هذه الظاهرة يفترض التمييز بين الصحافة السرية كمجرد وسيلة طباعة بديلة، والصحافة السرية كممارسة سياسية وخطابية تتبني على هدف تعبوي وتواصل. فهي ليست فقط وسيلة إعلامية بديلة، بل هي "منصة مقاومة" يتلاقى فيها الفكر السياسي مع الخطاب الرمزي، وتُصاغ فيها لغة نضالية تهدف إلى التثوير لا إلى الإخبار فقط. فقد أثبتت الدراسات أن هذه الصحف كانت تؤدي دورًا مركزيًا في صياغة ثقافة وطنية بديلة، وتجاوز الرقابة من خلال الاستعارات والرموز والتداول الشفوي للمحتوى في المساجد والأسواق والمقاهي الشعبية، مما منحها طابعًا جماهيريًا خالصًا، وأخرجها من حدود النخبة السياسية إلى فضاء الجماعة المقاومة^(١) من الخصائص الأساسية لهذه الصحافة أنها لا تتقيد بالمعايير الصحفية الكلاسيكية من حيث التحرير أو التنظيم أو التسلسل، بل تتسم أحيانًا بالعفوية، واللغة الحادة، والشعاراتية، بسبب الطابع العاجل والملح للرسالة السياسية المراد إيصالها. كما أن محدودية الموارد الطباعية دفعت القائمين عليها إلى اختزال النصوص، والتركيز على العبارات المكثفة، واستعمال الشعارات، ما يجعل من تحليلها اليوم عملاً لغويًا دقيقًا يمكن أن يكشف تحولات الوعي السياسي في لحظة ما من لحظات المقاومة^(٢) ويمكن القول

إن الصحافة السرية في المغرب العربي قد لعبت أدوارًا متكاملة، تراوحت بين التعبئة السياسية، وبت الوعي التاريخي، وفضح سياسات المستعمر، وتقديم نماذج بديلة للبطولة والتضحية. كما عملت على فضح شبكات العملاء، وتوثيق حالات التعذيب والاعتقال، وإعلان بيانات الحركات الوطنية، ونشر المقالات التعليمية التي تشرح للناس حقوقهم وتحثهم على الانخراط في النضال. لذلك، لم تكن هذه الصحافة مجرد وسيلة إعلام، بل كانت "آلية للتحرير على الفعل"^(٣). وقد أكد المؤرخون على أن هذه الصحف تمثل "شهادة على التاريخ من أسفل"، أي أنها تعكس نبض الناس وتفكيرهم وردود أفعالهم تجاه الاحتلال، وهي بذلك تختلف جذريًا عن الوثائق الرسمية أو خطب الزعماء، لأنها نابعة من الفضاء الشعبي، وتحمل في طياتها لغة المجتمع اليومية وأولوياته^(٤). ولهذا السبب، فإن التعامل مع هذه الصحف بوصفها وثائق تاريخية يستوجب تحليلًا متعدد الأبعاد، يشمل السياق السياسي، واللغة، والإخراج، والوسائط الطباعية، وشبكات التوزيع، وعليه، فإن فهم دور الصحافة السرية لا ينفصل عن فهم البيئة السياسية والاجتماعية التي أنتجتها، ولا عن طبيعة جمهورها، ولا عن تقنيات الكتابة فيها. فهي تُعد من أهم تجليات المقاومة الثقافية ضد الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي، ومصدرًا نادرًا للولوج إلى العقل السياسي الشعبي الذي لا تعكسه بالضرورة خطابات النخب الرسمية. وهذا ما يجعل من تحليل صحف مثل "المناضل" و"الطليلة" مهمة بحثية ضرورية لاستعادة جزء مهم من الذاكرة التاريخية المغربية.

1.2 السياق الاستعماري الفرنسي في المغرب العربي (1920-1956) لتحليل الصحافة السرية بوصفها أداة مقاومة، لا بد من فهم الإطار الاستعماري الذي نشأت في ظله. إذ لم تكن الصحافة السرية في المغرب العربي نتاج فراغ، بل جاءت كرد فعل على نظام استعماري متكامل، مارس قمعًا متعدد الأوجه، امتد من السيطرة العسكرية والاقتصادية إلى الاستحواذ الثقافي واللغوي. خلال الفترة الممتدة من ١٩٢٠ حتى ١٩٥٦، ترسخت سيطرة الاستعمار الفرنسي في كل من الجزائر وتونس، في حين كان المغرب تحت نظام الحماية الفرنسية، مما أنتج فضاءً استعماريًا مركبًا من حيث التشريعات والآليات، لكن موحدًا في جوهره القمعي. في الجزائر، التي عدت "جزءًا من التراب الفرنسي" منذ ١٨٤٨، عملت الإدارة الاستعمارية على تطبيق نظام إداري قائم على التمييز العرقي والمؤسسي، حيث مُنح المستوطنون الفرنسيون (الكولون) حقوقًا مدنية وسياسية، فيما حُرم الجزائريون من ذلك، وحوصروا داخل بنية قانونية مجحفة أبرزها "قانون الأهالي"، الذي شرعن العقوبات الجماعية والمحاكم الاستثنائية والإذلال الرمزي والاجتماعي^(٥). أما في تونس والمغرب، فكان نمط السيطرة مختلفًا من حيث الشكل، لكنه مماثل في المضمون. فقد حافظت سلطات الحماية على بعض المؤسسات المحلية الشكلية، بينما كانت السلطة الفعلية بيد المستشارين الفرنسيين الذين وجَّهوا السياسات التعليمية والاقتصادية والثقافية بما يخدم مصالح المركز الاستعماري. ولم يكن القمع محصورًا في الجانب الأمني فقط، بل تعداه إلى حقل التعليم والثقافة. فقد عملت فرنسا، وخصوصًا في الجزائر، على إحلال اللغة الفرنسية محل العربية، وتحجيم التعليم الديني، وتحويل المدارس إلى أدوات للدمج الثقافي. وتشير الإحصائيات إلى أن نسبة التعليم بالعربية في الجزائر انخفضت بشكل حاد بعد ١٩٢٠، وأن الغالبية الساحقة من المدارس كانت تحت سيطرة البعثات التبشيرية أو الإدارات الاستعمارية^(٦). كما جرى تفكيك البنية الاقتصادية التقليدية، عبر مصادرة الأراضي، وتحويل الفلاحين إلى عمالة رخيصة في مشاريع الاستيطان الزراعي، ما ساهم في خلق فوارق طبقية وعرقية عميقة. في هذا السياق القمعي، برزت الحركات الوطنية بوصفها ردًا متعدد الأوجه على الاستعمار. ففي الجزائر، شهدت الثلاثينيات والأربعينيات صعود تيارات متعددة، من جمعية العلماء المسلمين التي ركزت على البعد الثقافي والديني، إلى حزب الشعب الجزائري (PPA) الذي اعتمد خطابًا ثوريًا ذا طابع علماني. وفي تونس، تبلورت الحركة الوطنية حول الحزب الدستوري الجديد بقيادة الحبيب بورقيبة، الذي تبنى خطابًا سياسيًا قانونيًا وإصلاحيًا في الظاهر، لكنه كان يُصعد تدريجيًا باتجاه المطالبة بالاستقلال. أما في المغرب، فقد انبثقت الحركة الوطنية حول كتلة من العلماء والقضاة والتجار، قبل أن تتبلور في حزب الاستقلال في الأربعينيات، الذي اتخذ من الصحافة أحد أبرز أدوات التعبئة الشعبية^(٧) ويلاحظ أن السلطات الاستعمارية الفرنسية، في مواجهة هذا المدّ الوطني، لم تكنف بالملاحقة الأمنية، بل فرضت رقابة مشددة على الصحافة، وأغلقت العديد من الجرائد الوطنية، وفرضت قوانين تمنع توزيع أي منشور غير مرخص له. فقد صدر قانون الصحافة لسنة ١٩٣٩، الذي جرّم نشر أي خطاب مناهض للاستعمار، وفرض عقوبات صارمة على من يثبت عليه طباعة أو توزيع منشورات سياسية دون ترخيص. وبهذا، أُجبر العديد من المناضلين على اللجوء إلى إنتاج منشورات سرية، غالبًا ما كانت تُطبع بوسائل بدائية، وتوزع ليلًا بين الأحياء، أو تُهرَّب إلى المناطق الريفية عبر شبكات الطلاب والعمال. إن التوتر المتزايد بين الاستعمار والحركات الوطنية، خصوصًا بعد الحرب العالمية الثانية، جعل من الصحافة السرية إحدى أهم آليات المواجهة الرمزية. إذ باتت هذه الصحف تُصدر بيانات الإدانة، وتوثق التجاوزات الاستعمارية، وترتبط بين ما يجري محليًا وما يحدث عالميًا من حركات تحرر. كما قامت بتفكيك الخطاب الفرنسي حول "التمدين" و"التحصّر"، وكشفت عن تناقضاته البنيوية في ظل القمع والإقصاء. من هذا المنظور، فإن الصحافة السرية لم تكن مجرد نتيجة للظروف، بل

شكلت رداً سياسياً واعياً على نموذج استعمار دموي قائم على الهيمنة الرمزية والمادية في آن واحد. لقد أصبحت وسيلة من وسائل المقاومة التي لا تقل أثاراً عن السلاح، خصوصاً في المرحلة التي سبقت انطلاق الكفاح المسلح، أو تلك التي كانت تحتاج إلى خطاب تعبوي مساند له.

1.3 المنهج المعتمد: تحليل الخطاب التاريخي

يمثل اختيار المنهج العلمي أحد الأسس المفصلية في البحث الأكاديمي، خاصة حين يتعلق الأمر بتحليل ظواهر معقدة مثل الصحافة السرية، التي تقع عند تقاطع السياسة، والثقافة، واللغة، والتاريخ. وبما أن الدراسة تسعى إلى فهم دور الصحافة السرية في مقاومة الاستعمار الفرنسي عبر تحليل محتوى صحيفتي "المناضل" و"الطليلة"، فإن المنهج الأنسب لذلك هو **منهج تحليل الخطاب التاريخي**، كما طوّرتة الباحثة النمساوية روث فوداك (Ruth Wodak). هذا المنهج يتيح للباحث قراءة الخطاب ضمن سياقاته التاريخية والسياسية، دون عزله عن الفضاء الاجتماعي الذي أنتج فيه، مما يجعله أداة فعالة لتحليل الخطابات المقاومة في سياقات الاستعمار والكفاح الوطني. تحليل الخطاب عموماً يُعد فرعاً متعدد التخصصات، يتقاطع مع علم اللغة، وعلم الاجتماع، والأنثروبولوجيا، والتاريخ، ويتجاوز مجرد تحليل الجمل أو الكلمات، ليهتم بالبنى المعرفية والممارسات الاجتماعية التي تشكلها الخطابات. غير أن تحليل الخطاب التاريخي، كما بلورته فوداك، يركز على إدماج **المعرفة التاريخية** في التحليل، وهو ما يجعله متميزاً عن بقية مقاربات الخطاب النقدي) مثل فاندريك أو فيركلاف إذ ينطلق من أن الخطاب لا يُنتج فقط داخل لحظة تواصلية، بل هو امتداد لصراعات أيديولوجية ممتدة، تُعبر عنها اللغة بصورة غير مباشرة⁽⁸⁾ يُعرّف هذا المنهج بأنه "محاولة منهجية لتحليل الخطابات في سياقاتها التاريخية والسياسية والاجتماعية، عبر ربط النص بالسياق من خلال ثلاث مستويات: النصي، والسياقي، والتفاعلي"⁽⁹⁾. ولذلك، يعتمد الباحث ضمن هذا المنهج على تتبع السلاسل الخطابية التي تتكرر أو تتحول عبر الزمن، ويبحث في الطريقة التي تُستدعى بها الأحداث أو الرموز أو الشخصيات التاريخية لتأدية أدوار أيديولوجية في النص المعني. وهذا ما يجعله مناسباً للغاية لتحليل الصحف السرية، التي غالباً ما استدعت الماضي الوطني، أو دمجت بين الخطاب الديني والسياسي، أو وظفت مفردات رمزية تكررت في نصوص مختلفة بزمن ومكان متباينين. يعتمد تحليل الخطاب التاريخي على أدوات تقنية محددة، أبرزها: تحليل المقولات المواضيعية، واستكشاف الاستراتيجيات البلاغية، وتتبع الأفعال الكلامية، ودراسة البنية الحجاجية للنص. كما يركز على مفهوم "التموضع الخطابية"، أي كيف يضع المتكلم نفسه في مقابل الآخر (العدو، المستعمر، القارئ...)، مما يُمكن من كشف العلاقة بين اللغة والسلطة⁽¹⁰⁾. في حالة صحيفتي "المناضل" و"الطليلة"، يمكن الاستفادة من هذا المنهج لفهم كيف تم بناء صورة "العدو الفرنسي"، وكيف تم تمجيد "الشهيد"، أو استدعاء رموز المقاومة، ليس فقط كأخبار بل كأدوات للتعبيء والشرعنة. يتميز هذا المنهج أيضاً بمرونته في التعامل مع الوثائق غير الرسمية أو غير المكتملة، مثل الصحف السرية، التي قد تفتقد في كثير من الأحيان إلى نظام واضح أو سردية متماسكة، لكنها تحمل مضامين ذات دلالة سياسية قوية. كما يسمح بتحليل التكرار اللفظي، والصور البلاغية، والصيغ الندائية، ودرجات التضمين والإخفاء، وكلها عناصر حاسمة في خطاب المقاومة. والجدير بالذكر أن فوداك تؤكد على ضرورة المزج بين التحليل النصي والتحليل السياقي، مع إعطاء أهمية لتسلسل الأحداث التاريخية، وهو ما يجعل المنهج أكثر شمولاً مقارنة بالمقاربات البنوية⁽¹¹⁾. في ضوء ما سبق، فإن تطبيق تحليل الخطاب التاريخي في هذه الدراسة لا يهدف إلى تفكيك اللغة فقط، بل إلى فهم كيفية إنتاج الوعي الجماهيري داخل ظروف استعمارية خانقة، وكيف استُخدمت اللغة كأداة للرفض والتأطير والمواجهة. وتحليل النصوص الصحفية وفق هذا المنهج سيمكن الباحث من إعادة بناء مشهد المقاومة كما تم التعبير عنه من "أسفل"، أي من داخل الفضاء الشعبي، لا من خلال الخطابات الرسمية أو الأدبيات النخبوية. إن المنهج الذي تقترحه فوداك ينسجم تماماً مع طبيعة مصادر الدراسة، ويضمن قراءة متعددة المستويات للنصوص الصحفية، بدءاً من المفردات والجمل، وانتهاءً بالسياقات الكبرى التي أحاطت بالإنتاج الإعلامي السري في المغرب العربي. وهو ما يمنح هذا البحث قاعدة نظرية صلبة لتحليل خطاب "المناضل" و"الطليلة"، بوصفهما نصوصاً لغوية وأرشيفاً مقاوماً في آن.

الفصل الثاني: الصحافة السرية المغربية النشأة والتطور

1.2 تطور الصحافة السرية في الجزائر، تونس، المغرب

يمكن اعتبار الصحافة السرية في المغرب العربي خلال فترة الاستعمار الفرنسي واحدة من أبرز أدوات التعبير السياسي والثقافي التي اعتمدت عليها الحركات الوطنية في مواجهة الهيمنة الكولونيالية. إذ لعبت دوراً محورياً في تأطير الجماهير، وترويج الخطاب المقاوم، وتوثيق معاناة الشعوب، رغم محدودية الوسائل وخطورة الظروف الأمنية. وقد اتخذت هذه الصحافة أشكالاً مختلفة في كل من الجزائر وتونس والمغرب، باختلاف السياقات السياسية والتنظيمية، لكنها اشتركت في هدف جوهري واحد هو تقويض خطاب المستعمر وتثبيت البديل الوطني في الوعي الجمعي. في الجزائر، تعود جذور الصحافة السرية إلى بداية الثلاثينيات، مع تصاعد المدّ الوطني وتأسيس حزب الشعب الجزائري بقيادة مصالي الحاج. فقد أنشأ هذا

الحزب جهازًا إعلاميًا موازيًا، يتولى طباعة منشورات سرية بلغتين: العربية والفرنسية، وكان أبرزها النشرات الداخلية للحزب ومجلة الاستقلال. وتوزع هذه المطبوعات بشكل سري على الأحياء الشعبية والقرى النائية، اعتمادًا على شبكات من الطلبة والعمال والنساء. وقد كانت هذه الصحف تعكس خطابًا سياسيًا حادًا، يهاجم الإدارة الاستعمارية، ويشتد بالنضال العالمي من أجل الحرية، ويبرز المعاناة الاجتماعية للشعب الجزائري^(١٢) أما في تونس، فقد ظهرت الصحافة السرية في ظل الرقابة الصارمة التي فرضتها سلطات الحماية الفرنسية على الإعلام الوطني، وخاصة بعد أحداث ١٩٣٨ التي شهدت قمعًا واسعًا لأنشطة الحزب الدستوري الجديد. في هذا السياق، لجأ المناضلون إلى إصدار نشرات داخلية تحت أسماء مختلفة، كانت تُطبع غالبًا في ورش سرية بالعاصمة أو في الجنوب التونسي، وتُهرَّب إلى الطلبة أو العمال^(١٣) ومن بين هذه النشرات، كانت مجلة صوت الشعب أداة مهمة في إيصال رسائل الحزب إلى قواعده، خصوصًا في سنوات الحرب العالمية الثانية، حين ازداد التضيق على كل أشكال التعبير السياسي^(١٤). وقد ركزت هذه الصحف على قضايا مثل المطالبة بالدستور، رفض الاحتلال، دعم التعليم الوطني، والتنديد بالتجنيد القسري. وفي المغرب، اتخذت الصحافة السرية طابعًا أكثر تنوعًا، نتيجة تعدد التيارات السياسية وتفاوت درجات الرقابة بين المناطق. فبينما كان حزب الاستقلال يُصدر منشوراته في الخفاء من الرباط وفاس، كانت خلايا المقاومة في الشمال تطبع منشورات ثورية تُهرَّب من تطوان أو طنجة الخاضعتين للنفوذ الإسباني آنذاك. وقد برزت في هذا السياق صحيفة الطلائع، التي نشرت مقالات تحريضية ضد الاحتلال الفرنسي، ودعت للوحدة المغربية، وربطت بين الكفاح المغربي والنضال العربي الأشمل^(١٥). كما استعملت الأحزاب اليسارية مثل حزب التحرر والاشتراكية أدوات الطباعة السرية لتوزيع بياناتها في الأحياء العمالية بالدار البيضاء، حيث كان التأطير النقابي يقاطع مع التعبئة السياسية، إن ما يميِّز تطور الصحافة السرية في هذه الأقطار الثلاثة هو أنها لم تكن فقط نتاجًا للنخب، بل كانت تعتمد على بني شعبية واسعة، من النساء والفلاحين والحرفيين، ممن ساهموا في نسخ المنشورات يدويًا، أو في تهريبها، أو في قراءتها الجماعية في المساجد والمقاهي. وقد خلق ذلك فضاءً تواصلياً موازياً للإعلام الرسمي، يقوم على تداول الأخبار بطريقة شفوية ونصية معاً، ويسهم في بناء ما يُعرف بـ"الوعي المقاوم"، الذي لا يتشكل فقط من خلال البنادر، بل من خلال الكلمات والصور والشعارات.^(١٦) إن هذا التطور التاريخي للصحافة السرية يؤكد أنها لم تكن ظاهرة هامشية أو استثنائية، بل كانت جزءاً عضوياً من ديناميات التحرر الوطني، وتمثل أحد وجوه الذاكرة النضالية التي ما زالت تحتاج إلى دراسة وتاريخ. كما أن تنوع أساليبها وامتداداتها الجغرافية والسياسية يُبرز مدى قدرة الفعل الثقافي على الصمود أمام القمع، وعلى تحويل أدوات بسيطة إلى أسلحة رمزية فعالة.

2.2 العوائق الأمنية والتقنية في إنتاج الصحافة السرية ارتبطت الصحافة السرية في المغرب العربي خلال فترة الاستعمار الفرنسي بجملة من العوائق الأمنية والتقنية التي لم تكن عوارض عابرة، بل شكلت بنية دائمة في مسار الإنتاج الإعلامي المقاوم. فقد كانت هذه الصحافة تُنتج في بيئة معادية من حيث الرقابة والسيطرة الأمنية، وسط ظروف مادية وتقنية غاية في الصعوبة، مما حثَّ على القائمين عليها تطوير أساليب بديلة للطباعة والتوزيع والحماية، بما يتجاوز النماذج الكلاسيكية للعمل الصحفي. أول هذه العوائق يتمثل في الرقابة الاستعمارية الصارمة، التي لم تقتصر على الصحف العلنية، بل امتدت لتشمل مراقبة المطابع، وتتبع الورق والحبر، ومداهمة أماكن يُشتبه في طباعة منشورات سياسية فيها. فقد أنشأت الإدارات الفرنسية شبكات من المخبزين لرصد أي نشاط غير قانوني يتعلق بالطباعة أو توزيع المنشورات، وكانت تعتمد على تقنيات تحليل الخطوط اليدوية، وتفتيش المنازل، واعتراض الرسائل البريدية. بل إن بعض الأحياء الشعبية خضعت لحظر تجول جزئي بعد توزيع منشور سري، ما يشير إلى حساسية المستعمر من هذه الأداة الدعائية^(١٧) ولم تكن هذه الرقابة محصورة في العاصمة أو المدن الكبرى، بل امتدت إلى القرى والأرياف، حيث كانت سلطة القيادة والباشوات المواليين للاستعمار تشكل ذراعاً محلية في قمع أي نشاط تحرري. وكانت السلطات الفرنسية تصدر أوامر بمصادرة كل مطبعة لا تخضع لترخيص رسمي، ما أدى إلى استخدام وسائل بدائية للطباعة، مثل "الرونيو"، وهو جهاز يدوي يعتمد على نسخ النصوص من ألواح شمعية، ويُعد من أدوات الطباعة السرية الأكثر استخداماً في الأربعينيات والخمسينيات^(١٨). ورغم ضآلة جودة النسخ، فإن هذا الجهاز مكّن المناضلين من إنتاج مئات النسخ بسرعة ودون ضجيج. ومن العوائق التقنية الأخرى: ندرة المواد الأساسية للطباعة، مثل الورق والحبر، خصوصاً في أوقات الحرب أو عند تشديد الحصار الاقتصادي. وقد اضطر المناضلون إلى استخدام ورق التغليف أو دفاتر مدرسية مستعملة، بينما كان الحبر يُحصَّر محلياً بخلطات من الفحم والزيت. وفي بعض الحالات، كانت النسخ تُكتب يدوياً وتُصور ثم تُوزع، ما يُظهر حجم التحديات التي واجهت القائمين على هذه الصحافة، والابتكار الذي تطلَّبه المهمة في ظروف خانقة^(١٩) على المستوى البشري، واجهت الصحافة السرية خطر الاعتقال والتعذيب وحتى الإعدام، فكل من يثبت ضلوعه في طباعة أو توزيع منشور سياسي يُصنَّف في نظر الإدارة الاستعمارية "محرصاً على التمرد" أو "فاعلاً في مؤامرة". وتذكر التقارير الفرنسية أن العديد من الطلاب والفتيات والعمال تم توقيفهم فقط لحيازتهم نشرة سرية أو لنقلهم كومة من الأوراق.^(٢٠) وقد أدَّى هذا الخطر الدائم إلى تبني آليات خفية في التنظيم، مثل "الخلايا المصغرة"، التي يكون فيها كل عضو على معرفة بعضو

واحد فقط، تحاشياً لانكشاف الشبكة بأكملها في حال الاختراق أو الاعتقال. كما ظهرت تحديات لوجستية تتعلق بالتوزيع. فبسبب غياب القنوات النظامية، اعتمدت الصحافة السرية على شبكات بشرية، مثل طلبة الجامعات أو التجار أو مصلي المساجد، الذين كانوا يحملون المنشورات سرّاً ويضعونها في الأماكن العامة أو يُمرّرونها من يد إلى يد. وكانت بعض النشرات تُعلّق ليلاً على جدران المدارس أو الدكاكين، ثم تُجمع في الصباح خوفاً من الملاحقة. وتطلب ذلك تنسيقاً محكماً وسرعة في التنفيذ، ومهارات في التخفي وإخفاء الأدلة، بل أحياناً اللجوء إلى شفرات لغوية وإشارات داخل النصوص. إن هذه العوائق مجتمعة، الأمنية والتقنية واللوجستية، لم تُثْنِ عزيمة الفاعلين في هذا المجال، بل شكّلت حافزاً لتطوير منظومة مقاومة شاملة تقوم على التضامن الشعبي، والمناورة السياسية، والابتكار التقني البسيط. وقد عبّرت هذه التحديات عن مركزية الصحافة السرية في المعركة التحررية، حيث لم تكن فقط ناقلاً للمعلومة، بل فعلاً نضالياً قائماً بذاته^(٢١)

2.3 العلاقة بين الحركات الوطنية والصحف السرية

اتسمت العلاقة بين الحركات الوطنية في المغرب العربي والصحافة السرية خلال الحقبة الاستعمارية بكونها علاقة تفاعلية عضوية، تجاوزت حدود الدعم أو الاستخدام الأداتي، لتبلغ حدّ التماهي الكامل بين الخطاب السياسي والممارسة الإعلامية. إذ لم تكن الصحافة السرية مجرد وسيلة لنشر مواقف تلك الحركات، بل كانت امتداداً فعلياً لنشاطها التنظيمي والبرنامجي، كما ساهمت في صياغة هويتها الخطابية، وتعزيز حضورها الشعبي، بل وفي بعض الحالات، كانت هذه الصحافة تسبق القرار السياسي، وتُعبّر عن القواعد قبل القيادة. في الجزائر، برزت العلاقة بين حزب الشعب الجزائري (PPA) ثم جبهة التحرير الوطني لاحقاً والصحافة السرية، بوصفها علاقة تأطير وتعبئة واستقطاب. فقد اعتمدت هذه التنظيمات على الصحافة السرية كأداة مركزية لتوحيد الرؤية السياسية، والتواصل مع القواعد الشعبية في المدن والقرى، وتحقيق نوع من الانضباط الأيديولوجي عبر تعميم المفاهيم الأساسية للنضال ضد الاستعمار. وكانت النشرات الصادرة عن الحزب تُوزّع في المساجد، والمعامل، والأحياء الشعبية، وتُحرّر بأسلوب يجمع بين البساطة والشحن العاطفي. وقد استخدمت الجبهة هذه الصحف ليس فقط لإعلان بياناتها، بل أيضاً للتثقيف السياسي، ونشر تقارير الميدان، والتذكير بالشهداء والرموز، مما جعلها أداة تعبئة لا غنى عنها^(٢٢) أما في تونس، فقد أقام الحزب الدستوري الجديد، بقيادة الحبيب بورقيبة، شبكة صحفية سرية متطورة منذ أواخر الثلاثينيات، خصوصاً بعد حظر نشاطه العلني من قبل سلطات الحماية. كانت هذه الشبكة مكونة من لجان ميدانية تتولى الكتابة والطباعة والتوزيع، وغالباً ما كانت النشرات تُصاغ بلغة مزدوجة (العربية والفرنسية) بهدف مخاطبة الشعب التونسي من جهة، والرأي العام الفرنسي أو النخب الفرنكوفونية من جهة أخرى. واهتمت هذه الصحف بتعزيز رمزية الزعامة الوطنية، وتثبيت فكرة السيادة التونسية، وفضح تناقضات الخطاب الاستعماري الذي يروج لفكرة "الإصلاح ضمن الحماية"^(٢٣) في المغرب، لعب حزب الاستقلال، منذ تأسيسه في الأربعينيات، دوراً محورياً في إنتاج الصحافة السرية، خاصة خلال فترات التضييق الشديد. كانت النشرات التي يصدرها الحزب تُعدّ في مراكز خاصة، وتُهرّب داخل صناديق كتب أو بضائع تجارية، وغالباً ما كانت تُستخدم كوسيلة للرد على الدعاية الفرنسية أو لتوضيح موقف الحزب من الأحداث السياسية الداخلية والخارجية. ومن الملاحظ أن هذه الصحف لم تكن تقتصر على الشأن السياسي، بل شملت مقالات ثقافية وتربوية، ورسائل مفتوحة إلى الشباب والنساء، مما يُظهر وعي الحزب بأهمية بناء قاعدة اجتماعية مثقفة ومنخرطة^(٢٤) وعلى المستوى الخطابي، أسهمت هذه الصحف في بناء لغة وطنية مقاومة، عبر إعادة تعريف مفاهيم مثل "الحرية"، و"الهوية"، و"العدالة"، و"الاستقلال"، بما يتجاوز المعاني القانونية أو الدستورية إلى حمولة ثقافية وروحانية. كما ساهمت في خلق رموز سردية - مثل الشهيد، الأسير، البطل الشعبي - التي أصبحت جزءاً من الذاكرة الجماعية المغاربية. وكانت بعض الصحف تتضمن أناشيد وطنية أو نصوصاً أدبية تُوظف كأدوات شحن وجداني، تُعيد تشكيل العلاقة بين القارئ والنص، وتحفّزه على المشاركة في الفعل المقاوم^(٢٥) من جهة أخرى، لم تخلُ العلاقة بين الحركات الوطنية والصحافة السرية من التوترات. فقد ظهرت أحياناً خلافات بين قيادات الأحزاب وكوادر التحرير بشأن الأسلوب أو الخطاب أو توقيت النشر، كما حصل في بعض منشورات جبهة التحرير الجزائرية التي اتّهمت بالانزلاق نحو لغة التحريض العنيف أو التناقض مع الخط السياسي العام. ومع ذلك، فإن هذه الصحف ظلت الفضاء الوحيد الذي يُعبّر فيه الشعب عن رفضه، ويعبّر فيه الحزب عن هويته الحقيقية، بعيداً عن الخطاب المراوغ الذي كانت تضطر القيادات إلى اعتماده في اللقاءات العلنية أو أمام الإدارة الاستعمارية^(٢٦) في الخلاصة، يمكن القول إن الصحافة السرية لم تكن فقط وسيلة تعبير للحركات الوطنية، بل شكّلت أحد أركان الفعل النضالي المنظم، ومختبراً لتطوير الخطاب السياسي، وأداة لإعادة إنتاج الانتماء الوطني في مجتمع خضع طويلاً لمحاولات المسخ الثقافي والهيمنة الرمزية. لقد انصهرت الصحافة في بنية العمل النضالي، إلى درجة أصبح من المتعذر فصل "المنشور" عن "البيان"، و"الصحيفة" عن "التحرك"، و"المحرّر" عن "المناضل".

الفصل الثالث: تحليل خطاب صحيفة لله المناضل

3.1 الخصائص الشكلية والمضمونية

تميّزت صحيفة "المناضل" الجزائرية، بوصفها واحدة من أبرز أدوات الصحافة السرية خلال المرحلة الاستعمارية، بخصائص شكلية ومضمونية تعكس خصوصية السياق السياسي والأمني الذي وُلدت فيه. فقد جاءت هذه الخصائص نتيجة لمعادلة دقيقة تجمع بين محدودية الوسائل التقنية والتحديات الأمنية، وبين الحاجة الملحة إلى إنتاج خطاب تعبوي فعال، يخترق جدران القمع، ويصل إلى جمهور عريض. وعلى هذا الأساس، فإن دراسة البنية الشكلية والمضمونية لهذه الصحيفة تُمكن من فهم منطق اشتغالها كجهاز تعبئة جماهيرية، وكقناة بديلة للإعلام المقاوم، في ظل الرقابة الفرنسية الشديدة. من الناحية الشكلية، تكشف الأعداد المنشورة من "المناضل" — أو بالأحرى الأجزاء المتوفرة منها في الدراسات والأرشيفات — عن اعتمادها على الطباعة اليدوية البسيطة، باستخدام آلات "الرونيو" أو الطبع على الشمع، ما جعل جودة النسخ متواضعة، لكنها وظيفية. كانت أعداد الصحيفة تتكون غالبًا من صفحتين إلى أربع صفحات، تُطبع على وجه واحد، بدون رسومات أو أعمدة منتظمة، وغالبًا بخط واحد أسود، دون عنوان رئيسي بارز أو أسماء معلنين. هذا النمط من الإخراج يعود إلى ضرورات التخفي وسرعة الإنتاج، لا إلى نقص الوعي التحريري. فقد كان الشكل البسيط مقصودًا في حد ذاته لتسهيل التوزيع والنسخ والقراءة في ظروف ميدانية صعبة^(٢٧)

أما من حيث المضمون، فإن المقالات المنشورة في "المناضل" كانت تتنوع بين ثلاثة أنماط رئيسية:

• **البيانات السياسية** التي تُعلن فيها مواقف التنظيم من الأحداث الجارية،

• **التقارير الميدانية** عن انتهاكات الجيش الفرنسي أو إنجازات المقاومة،

• **النصوص التعبوية** ذات الطابع الخطابى أو الأدبي، والتي تهدف إلى شحن القارئ نفسيًا وأخلاقيًا.

• وقد تكررت بعض الصيغ الافتتاحية في عدة أعداد، مثل: "إلى جماهير الشعب الجزائري البطل...". أو "ها هي فرنسا الاستعمارية تُثبت من جديد أنها عدوة الحرية...". ما يشير إلى وجود بنية خطابية ثابتة نسبيًا، تعيد إنتاج الرؤية الأيديولوجية للحزب في قوالب لغوية متشابهة^(٢٨) كما تلاحظ الدراسات أن الصحيفة اعتمدت في كثير من الأحيان على استخدام اللغة العامية الجزائرية في الهوامش أو الشعارات القصيرة، مثل: "ما نسكتوش" أو "بلادنا لنا"، بينما بقيت المتون الرئيسية باللغة العربية الفصحى أو الفرنسية حسب طبيعة الجمهور المستهدف. هذا المزج اللغوي لا يعكس فقط مرونة الخطاب، بل يشير أيضًا إلى تعددية الشرائح التي كانت الصحيفة تسعى إلى مخاطبتها، من العمال في المدن إلى الفلاحين في القرى، ومن الطلاب إلى النساء^(٢٩) وتبرز الميزة المضمونية الأكثر أهمية في كون الصحيفة لم تكن تنقل "الأخبار" بالمعنى الصحفي الكلاسيكي، بل كانت تُعيد إنتاجها سياسيًا. فالحدث لا يُقدّم بوصفه واقعة مجردة، بل يُؤطر ضمن سردية المقاومة والبطولة. فعلى سبيل المثال، عندما تنشر "المناضل" خبرًا عن إضراب في مصنع أو احتجاج شعبي، فإنها لا تكتفي بوصف ما جرى، بل تُرفقه بتعليق يربط الفعل المحلي بالكفاح الوطني العام، مثل: "ها هم أبناء سطيح اليوم يُحيون خطى الشهداء، في وجه الاستغلال والاحتلال معًا"^(٣٠) كذلك، فإن "المناضل" لم تكن تكتفي بإنتاج محتوى داخلي، بل كانت تُعنى أيضًا بمتابعة نضالات الشعوب الأخرى، كما يظهر في تقاريرها عن ثورة الفيتنام أو نكبة فلسطين، وهو ما يعكس نزوعًا نحو بناء خطاب تضامني أُممي، يربط بين الاستعمار الفرنسي في الجزائر، والاستعمار العالمي في تجلياته المتعددة^(٣١)

3.2 أنماط اللغة المستخدمة: لغة ثورية، رمزية، استعارية تكشف قراءة خطاب صحيفة "المناضل" أن بنيتها اللغوية لا تقتصر على وظيفة إعلامية إخبارية، بل تتجاوز ذلك إلى ممارسة خطابية معبأة بأدوات رمزية واستعارية وشعاراتية تهدف إلى التعبئة والتحرير والتأطير الأيديولوجي. فاللغة المستخدمة في هذه الصحيفة ليست محايدة أو وصفية، بل هي "لغة مقاومة" مشحونة دلاليًا، تُعيد إنتاج الواقع من منظور ثوري، وتُخضع الأحداث والتجارب لسردية كفاحية تجعل القارئ لا مجرد متلقٍ، بل شريكًا في الفعل السياسي. أول ما يُلاحظ في خطاب "المناضل" هو الحضور المكثف لما يمكن تسميته بـ"اللغة الثورية"، وهي لغة قائمة على الاستقطاب الحاد بين ثنائيات كبرى: الاستعمار/الحرية، الخيانة/الشهادة، العدو/الشعب، الاحتلال/التحرير. هذه الثنائيات تُستخدم كألية أيديولوجية لفرز الواقع، وبناء موقف أخلاقي وسياسي واضح لا يحتمل الحياد. فتستخدم الصحيفة أوصافًا مثل "العدو الجبان"، "الجلاد الفرنسي"، "قوى القمع والدمار"، في مقابل مفردات تمجيدية للبطل المقاوم مثل "الشهيد المقدم"، "أبناء الثورة"، "الشعب الباسل"، ما يجعل اللغة وسيلة لإنتاج المعنى والموقف معًا^(٣٢) وتُكثّف هذه اللغة الثورية من خلال بنية نفسية عالية، تكثر فيها علامات التعجب والنداء والتهديد، كما في: "يا جماهير الشعب، لا تهنوا!"، أو "سيُهزم الاحتلال كما هُزم في ديان بيان فو!"، أو "فلنقف صفاً واحدًا خلف ثورتنا المجيدة!". هذا النمط من الخطاب يوظف البنية الإيقاعية والتكرار الشعاري ليحدث صدمة وجدانية لدى القارئ، ويُرسخ مشاعر الانتماء والنفير العام^(٣٣) أما المستوى الثاني الأكثر عمقًا فهو استخدام الرموز الوطنية والتاريخية، حيث توظف الصحيفة رموزًا من التاريخ الإسلامي أو الوطني لتأسيس مشروعية خطابها، ومنح القراء شعورًا بالاستمرارية التاريخية للكفاح. فتستحضر معارك مثل بدر أو الزلاقة، أو شخصيات مثل

الأمير عبد القادر أو عبد الحميد بن باديس، فتقول مثلاً: "إن فرنسا التي لم تهزم روح الأمير عبد القادر، لن تهزم شعب نوفمبر"، أو "بن باديس حيّ في كل طفل يُقاوم في قسبة الجزائر". إن هذه الإحالات الرمزية لا تُستخدم بوصفها تزيينات خطابية، بل أدوات تحشيدية تُضفي قداسة على النضال، وتربط الماضي بالمستقبل عبر الحاضر المقاوم^(٣٤) وتُستخدم الرمزية الدينية بوضوح في مقاطع تتحدث عن "واجب الجهاد"، و"الشهادة في سبيل الله والوطن"، و"النصر الذي وعد الله به عباده الصابرين"، ما يُظهر وعياً بخطاب جماهيري يُخاطب وجدان الشعب ذي الخلفية الإسلامية، دون أن تغيب في المقابل الاستعارات المستقاة من الثورة الفرنسية أو العالمية، مثل "الحرية، العدالة، السيادة الشعبية"، وهو ما يعكس تعدد مصادر الخطاب ومرونته في التشكيل وفق فئة الجمهور^(٣٥) أما الاستعارات اللغوية، فهي من أبرز سمات خطاب "المناضل". إذ لا يُقدّم الصراع مع الاستعمار بوصفه نزاعاً سياسياً فقط، بل يُصاغ استعارياً بوصفه صراعاً وجودياً، مثل استعارة "الوحش" للدلالة على الاحتلال، و"الطوفان الثوري" لوصف الشعب، و"القلاع الورقية" للإشارة إلى مؤسسات الاستعمار. كما تُوظف استعارات الطبيعة والقدر، مثل: "ريح الحرية تهب من جبال الأوراس"، أو "النار تحت الرماد"، في إشارة إلى تصاعد المقاومة رغم صمت السطح^(٣٦) كذلك، يُلاحظ توظيف استعارات جسدية تُشير إلى الجسد الوطني ككيان حيّ، مثل: "جراح الجزائر لن تُشفى إلا بالتحريم"، أو "نبض الثورة يسري في شرايين الشعب"، وهو ما يمنح اللغة بعداً تجسدياً، ويخلق صورة وطن متألم يُستعاد شرفه بالنضال. هذه الصور تعمق من التفاعل العاطفي مع النص، وتجعل المتلقي لا يرى الأحداث كوقائع باردة، بل كتجسيد لمعاناة حية تتطلب التضامن والفعل. ولا يغيب عن الصحيفة توظيف تقنية "الخطاب المزدوج"، حيث تُستخدم لغة مشفرة في بعض الأحيان للتهرب من الرقابة أو لتوجيه رسائل خاصة، كما في العبارات التي تشير إلى موعد أو مكان بعبارات رمزية، أو التي تُحيل إلى قيادات ميدانية بلقب مستعار، مثل: "ابن الجبل"، أو "القائد المجهول"، أو "صوت الثورة". هذا الأسلوب يُضفي غموضاً مقصوداً على النص، ويزيد من شعور القارئ بالانخراط في شبكة مقاومة حقيقية. إن هذه الأنماط اللغوية جميعاً تُبين أن "المناضل" لم تكن تكتب بلغة محايدة أو بروتوكولية، بل بلغة حرب باردة تُقاتل بالعبارات والرموز والشعارات، وتحاول أن تبني واقعاً بديلاً بالكلمة قبل البندقية. إنها تُنتج "خطاباً تعبويّاً" بمعناه الكامل، خطاب لا يكتفي بوصف الواقع بل يسعى إلى تغييره، ويدفع القارئ لا إلى التأمل فقط، بل إلى الفعل.

3.3 الموضوعات المتكررة: الهوية، المقاومة، العدو

عند تتبع خطاب صحيفة "المناضل"، يُلاحظ بوضوح أنّ بنيته الموضوعاتية تدور حول ثلاث ركائز كبرى متداخلة: **الهوية الوطنية، فعل المقاومة، وبناء صورة العدو**. وتشكل هذه الموضوعات الثلاث إطاراً أيديولوجياً ووظيفياً يُعيد إنتاج تصوّر شامل للصراع، لا بوصفه نزاعاً سياسياً فقط، بل بوصفه معركة رمزية وثقافية ووجودية، تُحدّد فيها الصحيفة من هو "نحن"، ومن هو "هم"، وما الذي يُفترض فعله. وتحضر هذه الموضوعات في الأعداد المتاحة ضمن تكرار إيقاعي، لكنها تتطور لغوياً ودلاليّاً بحسب السياقات المرحلية.

أولاً: الهوية الوطنية تتعامل "المناضل" مع مفهوم "الهوية" بوصفه ساحة للمقاومة، وليست مجرد معطى ثابت. فالهوية هنا تُبنى على النقيض من المشروع الاستعماري الفرنسي، الذي سعى إلى تفكيك الذات الجماعية للجزائريين عبر محو اللغة، والتاريخ، والانتماء الروحي. لذلك، تسعى الصحيفة إلى إعادة تعريف الهوية الجزائرية بوصفها هوية عربية-إسلامية-ثورية، ممتدة تاريخياً منذ الأمير عبد القادر وحتى شهداء نوفمبر، ومتجذرة في الوعي الشعبي لا في الخطابات الرسمية. وتكرر عبارات من قبيل: "شعبنا العربي المسلم"، و"أبناء ابن باديس"، و"سليل المجاهدين"، ما يدلّ على تداخل الهويات القومية والدينية والنضالية في خطابها. وتُستحضر رموز الأمة بشكل منتظم: "قسنطينة - معقل العلماء"، "الأوراس - مهد الرجال"، "اللغة العربية - شرف اللسان"، وهي إشارات لا تهدف إلى الوصف الجغرافي أو المعرفي، بل إلى تأكيد الهوية المقاومة التي تشكّلت من رحم الأرض والتاريخ والإسلام^(٣٧) كما تُستخدم الهوية بوصفها إطاراً تعبويّاً: فكل خيانة توصف بأنها "عذر بالهوية"، وكل مقاومة تُصوّر كاستعادة لها. فالهوية ليست فقط ما كونه، بل ما ندافع عنه، وما نكافح من أجله. وتلجأ الصحيفة أحياناً إلى استخدام أسلوب المقارنة لفضح التغريب الاستعماري، فتقول: "بينما يدعون التمدن، يحرمون أطفالنا من لغتهم"، أو "يريدون لنا أن نصبح بلا ذاكرة، بلا وطن، بلا دين". هذا التوظيف يضع الهوية في قلب المعركة الثقافية ويجعل الدفاع عنها مرادفاً لفعل المقاومة^(٣٨)

ثانياً: المقاومة

تُشكّل المقاومة في خطاب "المناضل" ليس فقط موضوعاً، بل أسلوب وجود وتفكير. فكل ما يُكتب في الصحيفة يُقرأ تحت عنوان ضمني: "كيف نقاوم؟ ولماذا نقاوم؟". تبدأ المقالات غالباً بإبراز حدث ميداني (إضراب، اعتقال، اشتباك)، ثم تُعيد تأطيره ضمن سردية كفاحية كبرى: "هذه ليست حادثة معزولة، بل فصل من فصول المواجهة". وتُبرز الصحيفة أن المقاومة لا تقتصر على القتال، بل تشمل التعليم السري، والتبرّع، والكتابة، والمقاطعة، والنشر. وهذا الاتساع في مفهوم المقاومة يمنح القارئ أدوات متعددة، ويُنتج شعوراً عاماً بالفاعلية. ومن خلال الاستعارات الكثيفة، تُجسّد

المقاومة على أنها "هيب لا يخبو"، و"مدّ لا يُوقف"، و"شجرة تسقيها دماء الشهداء"، مما يُضفي عليها بعدًا أسطوريًا يعزّز من جاذبيتها المعنوية والنفسية. كما يُكرّر ذكر أسماء الشهداء والمعتقلين في كل عدد تقريبًا، مع تعليقات مثل: "هؤلاء أبناؤنا، لن نخذلهم"، أو "دمهم أمانة في رقابنا"، وهي عبارات تُحوّل المقاومة من فعل فردي إلى واجب جماعي^(٣٩)

ثالثًا: صورة العدو من أبرز ما يميّز خطاب "المناضل" هو اشتغاله المكثّف على بناء صورة رمزية للعدو الاستعماري. فـ"فرنسا" لا تُقدّم كقوة قانونية أو حضارية، بل كـ"غاصب"، و"سفّاح"، و"عدو للإنسانية". يتم تفكيك خطاب فرنسا عن "التتوير" و"التمدين" عبر عرض مشاهد القمع، والتعذيب، والتهجير. وتُستعمل أوصاف مثل: "جيش الاحتلال"، "الإدارة الدموية"، "الأكاذيب الجمهورية"، وهي مصطلحات تُحمّل المشروع الاستعماري كله صفات لا أخلاقية. كما يُرسم العدو بصورة تتجاوز السياسة إلى الأخلاق: فرنسا "تكذب"، "تقتل الأبرياء"، "تخطف الأطفال"، "تحرّق البيوت"، وهو ما يجعل مقاومتها ليست مجرد واجب وطني، بل فرضًا أخلاقيًا وإنسانيًا. ويُقابل ذلك استدعاء مقارنات تاريخية مثل "فرنسا في الهند الصينية"، أو "الاستعمار في إفريقيا السوداء"، بهدف إثبات أن ما يحدث في الجزائر ليس استثناءً، بل استمرار لمنظومة عالمية من النهب والإبادة^(٤٠) ولا تكتفي الصحيفة بالعدو الخارجي، بل تتحدث أحيانًا عن "العدو الداخلي"، أي المتعاونين أو العملاء، وتصفهم بـ"الخونة"، و"عبيد المحتل"، و"بيادق فرنسا". وتحرص على تعرية هؤلاء بلغة شديدة: "باعوا ضميرهم"، "يتاجرون بدمائنا"، مما يدلّ على أن العدو في خطاب "المناضل" ليس فقط جيشًا بل بنية اجتماعية داخلية يجب تفكيكها، وهو ما يجعل خطاب العدو مركّبًا، ومتشابكًا مع خطاب الهوية والمقاومة^(٤١)

الفصل الرابع: تحليل خطاب صحيفة "الطلّعة"

4.1 البنية التحريرية في صحيفة "الطلّعة"

تتسم البنية التحريرية لصحيفة "الطلّعة" بطابعها الأيديولوجي الواضح، الناتج عن انتمائها العضوي للحزب الشيوعي التونسي، وهو ما انعكس في تنظيمها الداخلي، واختيار مواضيعها، وطريقة عرضها. فمنذ تأسيسها في ثلاثينيات القرن العشرين ومرورًا بفترة الأربعينيات والخمسينيات، شكلت "الطلّعة" نموذجًا للصحافة الحزبية المقاومة، حيث لم تكن مجرد وسيط إعلامي، بل أداة نضال سياسي وفكري. وقد ساهمت طبيعتها السرية وشبه السرية في تطوير أسلوب تحريري يراعي مقتضيات التمويه والنجاة من الرقابة، من جهة، وفي نفس الوقت يحافظ على نَفَس تحريضي واضح، من جهة أخرى. يُلاحظ أنّ الصفحة الأولى كانت مخصصة غالبًا للبيانات السياسية الحزبية أو تغطية الأحداث الوطنية ذات الطابع الثوري. كما أن الافتتاحيات كانت توفّق باسم "هيئة التحرير" أو "الطلّعة"، دون إشارة لأسماء الأفراد، حرصًا على الحماية الأمنية للعاملين في الجريدة، وهو ما يُعد سمة لافتة في الصحافة السرية عمومًا^(٤٢) وتدلّ هذه السمة على البنية الجماعية للقرار التحريري، حيث يتقدّم الخط الحزبي على الرأي الفردي، ما يكرّس طبيعة الصحيفة كمنبر جماعي ملتزم. أما من حيث تنوع الأبواب، فقد حرصت "الطلّعة" على تخصيص أعمدة ثابتة تتناول الوضع السياسي التونسي، وآخر حول نضالات الشعوب المضطّدة، بالإضافة إلى ركن ثقافي يحمل أحيانًا قصائد أو مقالات في الفكر التقدمي. ومن اللافت أيضًا، حضور الرسائل المفتوحة والنداءات الجماهيرية في مواضيع مختلفة من الصحيفة، ما يعكس توجهًا واضحًا لتفعيل التفاعل بين القارئ والجريدة، رغم طبيعتها السرية^(٤٣). ويظهر ذلك حرص هيئة التحرير على صناعة خطاب تعبوي يتجاوز النخبة السياسية، ويخاطب جمهورًا أوسع من العمال والطلبة والنساء. على المستوى الطباعي، اعتمدت "الطلّعة" أساليب طباعة بدائية، تتفاوت بين الكتابة بالآلة والطباعة اليدوية، كما كانت توزّع بوسائل سرية متعدّدة مثل تهريبها مع البريد أو توزيعها في الاجتماعات الليلية^(٤٤). هذا الواقع ألقى بظلاله على الشكل البصري للصحيفة، التي كانت تخلو غالبًا من الصور أو الرسوم، وتعتمد على الكثافة النصية، والترقيم الحاد للعناوين، بما يعزّز الوظيفة التحريضية المباشرة. كما أنّ استخدام اللغة الفرنسية أحيانًا إلى جانب العربية - خاصة في المقالات الموجهة للنخب أو للسلطات الاستعمارية - يكشف عن تعدّد جمهورها المُفترض، ويظهر وعيًا خطابيًا مركّبًا^(٤٥). فبينما توجّه المقالات العربية للقاعدة الشعبية، كانت الفرنسية تُؤدّي وظيفة مزدوجة: التعبير عن مواقف الحزب في خطاب موجّه للخارج، والإحراج الرمزي للسلطة الفرنسية بلغتها. أخيرًا، تبرز البنية التحريرية للصحيفة بوصفها انعكاسًا دقيقًا للبنية التنظيمية للحزب الشيوعي، حيث تتقاطع المركزية في اتخاذ القرار، مع مرونة في الانتقال السريع بين الموضوعات، وتكييف اللغة حسب الفئات المستهدفة. هذا التكيف التحريري لا ينبع فقط من الضرورات الأمنية، بل من قناعة أيديولوجية بأنّ الصحافة أداة تشكيل وعي طبقي ونضالي^(٤٦)

4.2 تحليل المقالات السياسية والتحريضية في صحيفة "الطلّعة"

تميّزت المقالات السياسية في صحيفة "الطلّعة" بنبرة خطابية حادة، تعكس حالة الصراع الطبقي والاستعماري في تونس إبان الحقبة الكولونيالية. فقد جاءت لغة الصحيفة مشبعة بروح النضال والتحريض، وتركّزت على إبراز التناقضات بين السلطة الاستعمارية الفرنسية وحقوق الشعب التونسي في السيادة والعدالة الاجتماعية. ويمكن تصنيف هذه المقالات ضمن ما يُعرف بخطاب التعبئة السياسية، الذي لا يكتفي بوصف الواقع، بل يعمل

على تغييره من خلال استنهاض الجماهير وتوجيههم نحو الفعل السياسي الجماعي^(٤٧) أنظهر الافتتاحيات، على وجه الخصوص، اهتمامًا بتأطير الأحداث السياسية الكبرى وفق رؤية ماركسية-لينينية، فالهجوم على البرجوازية العميلة، وانتقاد ما يُسمى "بالإصلاحات الشكلية"، والتمسك بخيار الثورة الشعبية، كانت ثوابت تحريرية متكررة. فعلى سبيل المثال، كتبت الصحيفة في عددها الصادر بتاريخ ١٦ فبراير ١٩٥٢: "إن الحاكم الفرنسي لا يقدّم وعودًا، بل يخنق البلاد في قبضة الحديد، وما يسميه الاستقلال الداخلي ليس إلا استمرارًا للهيمنة بوجه جديد"^(٤٨). يظهر هنا استخدام المجاز السياسي بوصف الاستعمار بـ"قبضة الحديد"، وهو نمط تحريضي تعبيرى يهدف إلى شحن الوجدان الجمعي وإحداث صدمة إدراكية. ومن التقنيات اللافتة أيضًا في مقالات "الطليلة"، توظيف أسلوب المقارنة التاريخية لتقويض السردية الاستعمارية؛ إذ غالبًا ما تُقارن السياسات الفرنسية في تونس بتجارب استعمارية أخرى كالهند أو الجزائر، مع الإشارة إلى أن مصير الاستعمار في كل الأمثلة كان الهزيمة^(٤٩). كما لا تغيب عن هذه المقالات لهجة الرفض القاطع للتفاوض مع فرنسا دون شروط، وتقدّم بذلك خطابًا يقوم على نفي شرعية الآخر الاستعماري كليًا. أمّا في تحليل البنية الخطابية، فيمكن رصد الاستعانة بكلمات مفاتيح متكررة مثل: "النضال"، "الاستغلال"، "الطبقة الكادحة"، "الاستقلال الحقيقي"، وهي مفردات تعمل كدعائم إيديولوجية صلبة، ترسخ التمايز بين المعسكر الوطني الثوري والمعسكر الرجعي أو العميل. هذا التقسيم الثنائي للواقع يخلق ما يسميه فان ديك بـ"الاستقطاب الأيديولوجي (ideological polarization)"، وهو أحد أهم أدوات الخطاب السياسي الراديكالي^(٥٠). وبالنظر إلى بعض المقالات الطويلة المنشورة في ١٩٥١-١٩٥٢، نلاحظ أنها كانت تحمل عناوين مباشرة مثل: "يا عمال تونس اتحدوا"، "السلطة للشعب لا للباشاوات"، "الاستعمار يموت... فلنجهز عليه". تتكرر هنا الصياغات الندائية (imperative style)، التي تتجه مباشرة للمتلقي وتأمّره بالفعل الثوري، وهي تقنية تحريضية تهدف إلى إشراك القارئ وجدانيًا وعمليًا في الخطاب^(٥١) في جانب آخر، لعبت المقالات دورًا مزدوجًا: التنظير السياسي من جهة، ومواكبة الأحداث من جهة أخرى، كالتعليق على اعتقالات القادة الوطنيين، أو تقبّل الاحتجاجات في العاصمة، أو التنديد بالرقابة على الصحف. ويتضح من ذلك أنّ "الطليلة" لم تكن صوتًا معزولًا في الهامش، بل كانت فاعلاً منخرطاً في الحدث السياسي، يُنتج خطابًا مقاومًا يسعى للتأثير لا للوصف فقط. هذا التداخل بين التحليل السياسي والدعوة الصريحة إلى الثورة منح الصحيفة بعدًا تعبويًا غير تقليدي، تجاوز النقل الصحفي الكلاسيكي، ليصبح خطابًا سياسيًا تعبويًا ذا بنية لغوية مشحونة بالإلحاح والسخط والرغبة في التغيير، وهو ما يؤكد وظيفتها كمحرك من محركات النضال لا مجرد مرآة له.

4.3 استدعاء التاريخ والدين في الخطاب المقاوم

يمثل استدعاء التاريخ والدين في خطاب صحيفة "الطليلة" أحد أبرز أدواتها الرمزية والتأطيرية التي وظفتها بوعي لغوي-إيديولوجي واضح لتدعيم مواقفها السياسية. وفي ظل محاولات الاستعمار الفرنسي نزع الشرعية التاريخية عن الحركات الوطنية، لجأت الصحيفة إلى إعادة كتابة الذاكرة الجماعية، مستندة إلى رموز الماضي الوطني والديني، لتأكيد استمرارية النضال وتثبيت شرعيته. في كثير من المقالات، يظهر التاريخ ليس بوصفه سردًا لأحداث ماضية، بل كأداة إثبات أخلاقي ووطني. فعلى سبيل المثال، نقرأ في عدد ٧ أكتوبر ١٩٥١: "إننا اليوم نكمل ما بدأه أجدادنا في مقاومة الغازي منذ عهد الحسين بن علي، ونستمد قوتنا من ماضٍ كتب بالدماء والزيتون"^(٥٢) هذا النوع من الاستدعاء يؤسس لفكرة استمرارية المقاومة، ويضع الحاضر ضمن سردية طويلة تبدأ مع "أبطال التاريخ" وتبلغ ذروتها مع "الطليلة المناضلة". اللافت في الخطاب أن الصحيفة لا تكتفي بالاستدعاء الوطني، بل تستحضر الدين الإسلامي كمرجعية تضيء بعدًا أخلاقيًا وروحيًا على النضال. في عدد ٢١ مارس ١٩٥٢، نُشرت مقالة بعنوان "الصيام صمود"، جاء فيها: "كما صبر الصحابة في بدر، يصبر أبناء تونس في وجه المستعمر، صياهمم مقاومة، وإيمانهم درع في وجه الطغيان"^(٥٣). يتم هنا استخدام السيرة النبوية كمصدر للشرعية الثقافية، وإعادة تأويل الشعائر الدينية في سياق ثوري، ما يُشير إلى رغبة الصحيفة في توسيع جمهورها ليتجاوز الطبقة الشيوعية، ويشمل المتدينين والوطنيين على حدّ سواء. كما حضرت إشارات لثورات تاريخية عالمية مثل الثورة الفرنسية، والثورة الروسية، وثورّة عبد الكريم الخطابي في المغرب، بشكل يوحي بانتماء نضال تونس لحركة تحرر عالمية. فـ"الطليلة" لا تعرض الثورة كفعل محلي، بل كجزء من مسار أممي ضد الإمبريالية^(٥٤) هذه المزاجية بين المحلي والعالمي تُعزّز من شرعية النضال وتُعيد تعريف الهوية الوطنية في إطار كوني. من جهة أخرى، استُخدمت بعض الرموز الدينية بشكل بلاغي متكرّر، مثل "فرعون" للإشارة إلى المستعمر، أو "الخيانة كرجس من عمل الشيطان"، مما يدل على تأثر الخطاب ببنية القصص القرآني والموروث الشعبي^(٥٥). وتمثل هذه التوظيفات ما يُعرف في تحليل الخطاب بـ"الاستعارة المفهومية"، حيث تُستخدم الموروثات الثقافية لتفسير الواقع السياسي، وتُحوّل الصراع إلى مواجهة بين الخير والشر، ما يعمّق البعد التعبوي للخطاب. ويظهر أن "الطليلة" كانت واعية بهذا البناء الخطابى المعقّد، فاستدعاء التاريخ والدين لم يكن حشويًا أو عاطفيًا فقط،

بل وظيفيًا واستراتيجيًا، بهدف كسب شرائح شعبية أوسع، وإعادة موضوعة الصراع ضمن أفق أعمق يتجاوز اللحظة السياسية. وقد منح هذا التوظيف الخطاب بُعدًا ثقافيًا متينًا، ساعده على مقاومة الادعاءات الفرنسية بـ"التمدين"، ووقّر بديلاً رمزيًا قويًا في معركة الشرعية.

الذاتة

تكشف دراسة خطاب الصحافة السرية في المغرب العربي، من خلال نموذجي "المناضل" و"الطليلة"، عن الأهمية البالغة لهذه المنابر في تشكيل الوعي الجمعي المناهض للاستعمار الفرنسي خلال الفترة الممتدة من ١٩٢٠ إلى ١٩٥٦. لقد شكّلت هذه الصحف فضاءً بديلاً للإعلام الرسمي، وأداة فعالة في نقل خطاب المقاومة، وتعبئة الجمهور، وتشبيث الهوية الوطنية في وجه سياسات التمويه والتذويب الثقافي. تميز خطابها ببنية لغوية مباشرة، تعتمد الاستعارات والرموز، وتستحضر المرجعيات التاريخية والدينية لتأطير النضال في سياق شرعي وأخلاقي. إن الطابع السري لهذه الصحافة لم يمنعها من لعب أدوار استراتيجية، بل ربما منحها حرية أكبر في التعبير الجذري، دون الخضوع لرقابة رسمية. كما أظهرت الدراسة أن توظيف اللغة لم يكن محايدًا، بل مشحونًا بالأيديولوجيا، موجّهًا بدقة نحو بناء وعي مقاوم ومتماسك، يستنهض الفعل الجماهيري وينزع الشرعية عن المحتل وأدواته. وقد بينت المعالجة المقارنة بين "المناضل" و"الطليلة" أن كلا الصحيفتين تبنتا أنماطًا مقاربة في الخطاب، من حيث التعبئة والتحرير، لكنهما اختلفتا في المرجعية الفكرية وتنوع الاستراتيجيات التعبيرية. ففي حين تميّز خطاب "المناضل" بالتركيز على فكرة الهوية والانتماء الشعبي والتاريخي، وظّف خطاب "الطليلة" أدوات ماركسية أممية وربط بين المعركة التحررية في تونس والنضال العمالي العالمي. ومع ذلك، يشترك الاثنان في بناء سردية مقاومة تسعى إلى نزع شرعية الاستعمار من جهة، وإعادة تشكيل الذات الوطنية من جهة أخرى. عكست هذه الصحافة أيضًا قدرة الحركة الوطنية المغربية على تطوير أدواتها الخطابية رغم محدودية الوسائل المادية والتقنية. وقدمت نموذجًا عن "الصحافة الملتزمة" التي لا تكفي بالتغطية أو التحليل، بل تعتبر نفسها جزءًا من العملية النضالية. ولعلّ أهم ما يميّز هذا النوع من الخطاب أنه لا يستهدف العقل فقط، بل الوجدان أيضًا، إذ يستثمر الرموز الدينية والتاريخية، كما يوظف اللغة التحريضية والانفعالية في خدمة القضية الوطنية. إن قراءة خطاب هذه الصحف بمنهج تحليل الخطاب التاريخي سمح بإعادة تقييمها ليس فقط كمصدر تاريخي، بل كفاعلية ثقافية لها أثر بنيوي في تشكيل المخيال الجمعي، والمساهمة في بناء الهوية المقاومة، وتمكين الذاكرة الوطنية من الاستمرار في مواجهة محاولات الطمس والنسيان.

النتائج

١. كشفت البنية الشكلية لصحيفتي "المناضل" و"الطليلة" عن ميل واضح نحو الخطاب الجماعي والتوقيع المؤسسي، بما يعكس انتماءهما لتنظيمات سياسية ذات هيكل مركزي سري.
٢. اتسم الخطاب اللغوي في الصحيفتين بطابعه التحريضي والتعبوي، من خلال الاستعارات والمجازات العسكرية والدينية، وصياغات نداء مباشرة توجه القارئ للفعل الثوري.
٣. أظهرت المقالات توظيفًا واسعًا للذاكرة التاريخية والدينية كأداة شرعنة سياسية وأخلاقية، تربط الحاضر النضالي بالماضي المقاوم والرموز الإسلامية.
٤. اعتمدت الصحيفتان استراتيجية مزدوجة في اللغة: عربية مبسطة للجمهور العريض، وفرنسية نخبوية موجهة للنظام الاستعماري والرأي العام الغربي.
٥. برزت الصحافة السرية كأداة مزدوجة: توثيقية وتحريضية، حافظت على استمرارية الذاكرة النضالية وأسهمت في تعبئة الشرائح الشعبية.

التوصيات

١. ضرورة أرشفة الصحف السرية المغربية رقميًا، بما يضمن حفظها من التلف ويوفرها للباحثين كمادة أولية مهمّة في دراسة التاريخ الوطني.
٢. تشجيع الباحثين في التاريخ واللسانيات والعلوم السياسية على استثمار هذه النصوص في دراسات تحليل الخطاب، لفهم كيفية صناعة الوعي في زمن الاحتلال.
٣. إدراج هذه الصحف ضمن المناهج التعليمية الوطنية، خاصة في كليات الإعلام والتاريخ، لما تحمله من دروس في الصمود الثقافي والتواصل المقاوم.
٤. دعم مشاريع مقارنة بين تجارب الصحافة السرية في بلدان المغرب العربي الثلاثة، للكشف عن التقاطعات والخصوصيات المحلية في تعاطيها مع الاستعمار.

٥. تأسيس وحدات بحث أكاديمية متعددة التخصصات تهتم بالصحافة المقاومة، وتربط بين الأرشيف التاريخي وتحليل المضامين والخطاب الإعلامي.

قائمة المراجع

١. فوداك، روث. تحليل الخطاب وتاريخ الأفكار السياسية. ترجمة محمد عصفور. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠١٣.
٨. بلعباس، عبد الرزاق. الصحافة الوطنية السرية: منشورات حزب الشعب الجزائري. الجزائر: منشورات المتحف الوطني للمجاهد، ٢٠٠٩.
٩. بونار، رابح. الصحافة الثورية في الجزائر: من البيان إلى الاستقلال. الجزائر: منشورات ANEP، ٢٠٠٧.
١٠. شفيق، منير. تجارب العمل السري في المغرب العربي. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٠.
١١. مينييه، جيلبير. المغرب والاستعمار الفرنسي: من البوادي إلى النضال الحضري. ترجمة عبد اللطيف هسوف. الدار البيضاء: منشورات ملتقى الطرق، ٢٠٠٧.
١٢. الأشرف، مصطفى. الجزائر: الأمة والمجتمع. بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٠.
١٣. بومنير، كمال. "بلاغة الخطاب الثوري في الجزائر خلال الاحتلال." رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، ٢٠١٧.
١٤. التومي، محمد. الصحافة التونسية زمن الاستعمار: قراءة في الخط التحريري. تونس: منشورات كلية العلوم الإنسانية، ٢٠٠٩.
١٥. البوعزيزي، أمين. "شهادات حول الصحافة السرية التونسية." مجلة التحرر، العدد ٣ (٢٠١١): ٨٨-٩٥.
١٦. بوزيد، الطاهر. الذاكرة الثورية في الخطاب الصحفي التونسي المقاوم. صفاقس: المركز المغربي للدراسات التاريخية، ٢٠١١.
١٧. الكحلوي، طارق. الصحافة السياسية في تونس: من النشأة إلى الاستقلال. تونس: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٤.
١٨. قرفال، محمود. الإعلام في خدمة الثورة: قراءة في دور الصحافة الحزبية. تونس: المعهد العربي للدراسات، ٢٠١٦.
١٩. بن صالح، نزار. اللغة والتحرير في الإعلام التونسي المقاوم. سوسة: دار اليسار، ٢٠٢٠.
٢٠. الزواوي، عبد الحليم. "التناص الديني والسياسي في خطاب الصحافة الحزبية." مجلة الفكر الجديد، العدد ١٥ (٢٠١٩): ٧٧-٨٤.
٢٢. صفحة متحف المجاهد - سيدي بلعباس. "نص أول عدد من المناضل، ٢٢ أكتوبر ١٩٥٥. Facebook. تم الوصول إليه في ٢٢ يوليو ٢٠٢٥. <https://www.facebook.com/museemoudjahid>.
٢٣. DSpace، جامعة قلمة. "أرشيف جريدة المناضل ضمن دراسة حول الخطاب الثوري." <https://dspace.univ-guelma.dz>.
٢٤. ويكيبيديا. "الطليعة (جريدة تونسية)" ويكيبيديا العربية. آخر تعديل في ١٠ يونيو ٢٠٢٣. [https://ar.wikipedia.org/wiki/الطليعة_\(جريدة\)](https://ar.wikipedia.org/wiki/الطليعة_(جريدة)).
٢٥. بشيرة بن سالم. "كتابات نسائية في الصحافة السرية: تجربة جريدة الطليعة 27 Nawaat.org. فبراير ٢٠٢١. <https://nawaat.org/portail/2021/02/27/كتابات-نسائية-في-الصحافة-السرية>.
٢٦. دون مؤلف. "الاغتيال السياسي في المغرب العربي ما بعد الحرب العالمية الثانية 15 Jomhouria.com. يناير ٢٠٢١. <https://jomhouria.com/articles/تاريخ-الاغتيال-السياسي-في-المغرب-العربي>.
٢٧. دون مؤلف. "الطليعة: هيئة تحريرية مقاومة - France24. الرسوم التوضيحية. تم الوصول إليه في ٢٣ يوليو ٢٠٢٥. <https://graphics.france24.com/maghreb-press-clandestine>.
٢٨. دون مؤلف. "بيان احتجاجي على مسودة الدستور الجديد من جريدة الطليعة 20 Ultrasawt.com. ديسمبر ٢٠٢٢. <https://www.ultrasawt.com/بيان-جريدة-الطليعة-ضد-الدستور>.
٢٩. رزق، ريم. "خطاب الهوية في الفصل الأول من الدستور التونسي بين ١٩٥٩ و ٢٠٢٢." رواق الفكر - المركز العربي لدراسات حقوق الإنسان 14. مارس ٢٠٢٣. <https://cihrs-rowaq.org/٢٠٢٣-الهوية-في-الدستور-التونسي>.
٣٠. "Al-Araby Al-Jadeed. الذكرى السابعة والستون لانقضاء الطليعة: مقالات أرشيفية." العربي الجديد. نُشر في ١٦ فبراير ٢٠١٩. <https://www.alaraby.co.uk>.

31. Wodak, Ruth, and Michael Meyer, eds. Methods of Critical Discourse Analysis. London: SAGE, 2001.

32. van Dijk, Teun A. Ideology and Discourse. Barcelona: Pompeu Fabra University, 2000.

33. Lakoff, George, and Mark Johnson. Metaphors We Live By. Chicago: University of Chicago Press, 1980.

34. James, C. Scott. *Domination and the Arts of Resistance: Hidden Transcripts*. New Haven: Yale University Press, 1990.
35. Frémeaux, Jacques. *La France et l'Islam depuis 1789*. Paris: Presses Universitaires de France, 2015.
36. Chatterjee, Partha. *The Politics of the Governed: Reflections on Popular Politics in Most of the World*. New York: Columbia University Press, 2004.
37. François, Sino. "Presse communiste tunisienne et stratégie discursive." *Cahiers du Maghreb*, no. 12 (2007): 24-28.

هوامش البحث

- (١) جيمس سي. سكوت، الهيمنة وفنون المقاومة: النصوص الخفية، نيو هافن: منشورات جامعة ييل، ١٩٩٠، ص ٤٥-٤٩.
- (٢) جاك فريمو، فرنسا والإسلام منذ عام ١٧٨٩، باريس: منشورات PUF، ٢٠١٥، ص ٢٠٣.
- (٣) رشيد تلمساني، "الدولة والثورة في الجزائر"، مجلة الدراسات الإفريقية الحديثة، المجلد ٢٤، العدد ٤ (١٩٨٦): ص ٦٤٩-٦٧٠.
- (٤) بارثا شترجي، سياسات المحكومين: تأملات في السياسة الشعبية في معظم أنحاء العالم، نيويورك: منشورات جامعة كولومبيا، ٢٠٠٤، ص ٥٦.
- (٥) شارل روبير أجرون، الجزائر المعاصرة: من الاحتلال إلى الاستقلال، ١٨٣٠-١٩٦٢، ترجمة عبد القادر الساحلي (لندن: منشورات هيرست، ١٩٩١)، ص ٢١٤-٢١٧.
- (٦) باتريشيا لورسين، الهويات الإمبريالية: الصور النمطية والتحيّز والعرق في الجزائر الاستعمارية، ترجمة سعيد بوالريش (لندن: منشورات توريس، ١٩٩٥)، ص ١٦٧-١٧٠.
- (٧) كينيث بيركنز، تاريخ تونس الحديث، ترجمة محمد البشير بن سلامة (كمبريدج: منشورات جامعة كمبريدج، ٢٠٠٤)، ص ٩١-٩٤.
- (٨) روث فوداك، أساليب تحليل الخطاب: مدخل نقدي متعدد التخصصات، ترجمة: محمد عصفور (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠١٣)، ص ١٠٢.
- (٩) Ruth Wodak, "What CDA is About: A Summary of its History, Important Concepts and Its Developments," in *Methods of Critical Discourse Analysis*, ed. Ruth Wodak and Michael Meyer (London: SAGE, 2001), p. 3-5.
- (١٠) تيري إيغلتن، الأيديولوجيا: مقدمة قصيرة جدًا، ترجمة: أحمد حسان (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٢)، ص ٧٧-٨١.
- (١١) روث فوداك، تحليل الخطاب وتاريخ الأفكار السياسية، ضمن: الدراسات النقدية للخطاب، تحرير: مايكل ماير (لندن: ساج، ٢٠٠٩)، ص ٤٢.
- (١٢) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي: الحركة الوطنية والثقافية ١٨٣٠-١٩٥٤، الجزائر: دار الأمة، ١٩٩٨، ج ٧، ص ١٥٢-١٥٨.
- (١٣) منصف الشنوفي، الحركة الوطنية التونسية: من العمل الإصلاحي إلى المقاومة السرية، تونس: الدار المتوسطية للنشر، ٢٠١٢، ص ١٠٩-١١٣.
- (١٤) عبد الهادي التازي، تاريخ الصحافة المغربية: من النشأة إلى الاستقلال، الرباط: منشورات وزارة الثقافة، ٢٠٠٥، ص ٢٢١-٢٢٦.
- (١٥) جيلبير مينيه، المغرب والاستعمار الفرنسي: من البوادي إلى النضال الحضري، ترجمة عبد اللطيف هسوف، الدار البيضاء: منشورات ملتقى الطرق، ٢٠٠٧، ص ١٧٢-١٧٨.
- (١٦) عبد الله العروي، الأيديولوجيا العربية المعاصرة، بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٢، ص ٧٣-٧٥.
- (١٧) يحيى بوعزيز، الكفاح الإعلامي في الجزائر خلال الثورة التحريرية، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٥، ص ٦١-٦٦.
- (١٨) عبد الرزاق بلعباس، الصحافة الوطنية السرية: منشورات حزب الشعب الجزائري، الجزائر: منشورات المتحف الوطني للمجاهد، ٢٠٠٩، ص ٤٥-٥٠.
- (١٩) عبد السلام بنعبد العالي، في الكتابة الصحفية زمن الاستعمار، الرباط: منشورات كلية الآداب، ٢٠١٤، ص ٣٧-٤١.
- (٢٠) شوقي بلعيد، الأرشيف البوليسي الفرنسي والمقاومة الجزائرية، باريس: مركز البحوث المغاربية، ٢٠١١، ص ٨٨-٩٣.
- (٢١) منير شفيق، تجارب العمل السري في المغرب العربي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٠، ص ١١٥-١١٩.
- (٢٢) رايح بونار، الصحافة الثورية في الجزائر: من البيان إلى الاستقلال، الجزائر: منشورات ANEP، ٢٠٠٧، ص ٩٨-١٠٣.

- (٢٣) محمد الغنوشي، بورقيبة والصحافة السرية في سنوات النفي والمطاردة، تونس: دار سيراس للنشر، ٢٠٠١، ص ٦٧-٧٤.
- (٢٤) محمد ضريف، العمل السياسي السري في المغرب: دراسة في التنظيم والخطاب، الدار البيضاء: ، ٢٠٠٩، ص ١٢٢-١٢٨.
- (٢٥) عابد الجابري، الهوية والمقاومة في الخطاب المغاربي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٠، ص ٨٩-٩٤.
- (٢٦) ميمون بوشياخي، الذاكرة الثورية والكتابة السرية: نماذج من الصحف المغاربية، الرباط: دار الأمان، ٢٠١٦، ص ١٤٤-١٥٠.
- (٢٧) عبد الرزاق بلعباس، الصحافة الوطنية السرية: منشورات حزب الشعب الجزائري، الجزائر: ، ٢٠٠٩، ص ٤٤-٤٨.
- (٢٨) رايح يونار، الصحافة الثورية في الجزائر: من البيان إلى الاستقلال، الجزائر: منشورات ANEP، ٢٠٠٧، ص ٩١-٩٧.
- (٢٩) منير شفيق، تجارب العمل السري في المغرب العربي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٠، ص ١١٨-١٢٣.
- (٣٠) جيلبير مينيه، المغرب والاستعمار الفرنسي: من البوادي إلى النضال الحضري، ترجمة عبد اللطيف هسوف، الطرق، ٢٠٠٧، ص ١٧٦.
- (٣١) مصطفى الأشرف، الجزائر: الأمة والمجتمع، بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٠، ص ٢٠٣-٢٠٥.
- (٣٢) رايح يونار، الصحافة الثورية في الجزائر: من البيان إلى الاستقلال، الجزائر: منشورات ANEP، ٢٠٠٧، ص ١٠٣-١٠٦.
- (٣٣) عبد الرزاق بلعباس، الصحافة الوطنية السرية: منشورات حزب الشعب الجزائري، الجزائر: ، ٢٠٠٩، ص ٥٧-٦١.
- (٣٤) مصطفى الأشرف، الجزائر: الأمة والمجتمع، بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٠، ص ٢١٣-٢١٥.
- (٣٥) منير شفيق، تجارب العمل السري في المغرب العربي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٠، ص ١٢٥-١٢٨.
- (٣٦) كمال بومنير، بلاغة الخطاب الثوري في الجزائر خلال الاحتلال، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر، ٢٠١٧، ص ٩١-٩٧.
- (٣٧) عبد الرزاق بلعباس، الصحافة الوطنية السرية: منشورات حزب الشعب الجزائري، الجزائر: ، ٢٠٠٩، ص ٦٤-٦٧.
- (٣٨) مصطفى الأشرف، الجزائر: الأمة والمجتمع، بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٠، ص ٢١٨-٢٢١.
- (٣٩) منير شفيق، تجارب العمل السري في المغرب العربي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٠، ص ١٢٩-١٣٢.
- (٤٠) كمال بومنير، بلاغة الخطاب الثوري في الجزائر خلال الاحتلال، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر، ٢٠١٧، ص ٩٩-١٠٢.
- (٤١) رايح يونار، الصحافة الثورية في الجزائر: من البيان إلى الاستقلال، الجزائر: منشورات ANEP، ٢٠٠٧، ص ١٠٨-١١١.
- (٤٢) الطليعة، عدد ١٠ جوان ١٩٤٧، ص ١.
- (٤٣) محمد التومي، الصحافة التونسية زمن الاستعمار: قراءة في الخط التحريري (تونس: منشورات كلية العلوم الإنسانية، ٢٠٠٩)، ١١٧.
- (٤٤) أمين البوعزيزي، شهادات حول الصحافة السرية التونسية، ضمن مجلة "التحرر"، العدد ٣، ٢٠١١، ص ٨٨.
- (٤٥) François Siino, "Presse communiste tunisienne et stratégie discursive," Cahiers du Maghreb, no. 12 (2007): 24-28.
- (٤٦) محمود قرفال، الإعلام في خدمة الثورة: قراءة في دور الصحافة الحزبية (تونس: المعهد العربي للدراسات، ٢٠١٦)، ٦٤-٦٦.
- (٤٧) طارق الكحلوي، الصحافة السياسية في تونس: من النشأة إلى الاستقلال (تونس: منشورات المركز العربي للأبحاث، ٢٠١٤)، ٩٢-٩٥.
- (٤٨) صحيفة "الطليعة"، عدد ١٦ شباط/فبراير ١٩٥٢، الصفحة الأولى.
- (٤٩) سمير المليتي، "المقارنة التاريخية في خطاب الصحافة المقاومة"، مجلة دراسات مغاربية، العدد ١٢ (٢٠١٨): ١٠٣-١٠٨.
- (٥٠) Teun A. van Dijk, Ideology and Discourse (Barcelona: Pompeu Fabra University, 2000), 45.
- (٥١) نزار بن صالح، اللغة والتحريض في الإعلام التونسي المقاوم (سوسة: دار اليسار، ٢٠٢٠)، ٦٦-٧١.
- (٥٢) الطليعة، عدد ٢١ آذار/مارس ١٩٥٢، ص ١.
- (٥٣) الطاهر بو زيد، الذاكرة الثورية في الخطاب الصحفي التونسي المقاوم (صفاقس: المركز المغاربي للدراسات التاريخية، ٢٠١١)، ٥٥-٥٨.
- (٥٤) عبد الحليم الزواوي، "التناص الديني والسياسي في خطاب الصحافة الحزبية"، مجلة الفكر الجديد، العدد ١٥ (٢٠١٩): ٧٧-٨٤.
- (٥٥) Lakoff, George, and Mark Johnson, Metaphors We Live By (Chicago: University of Chicago Press, 1980), 11-15.